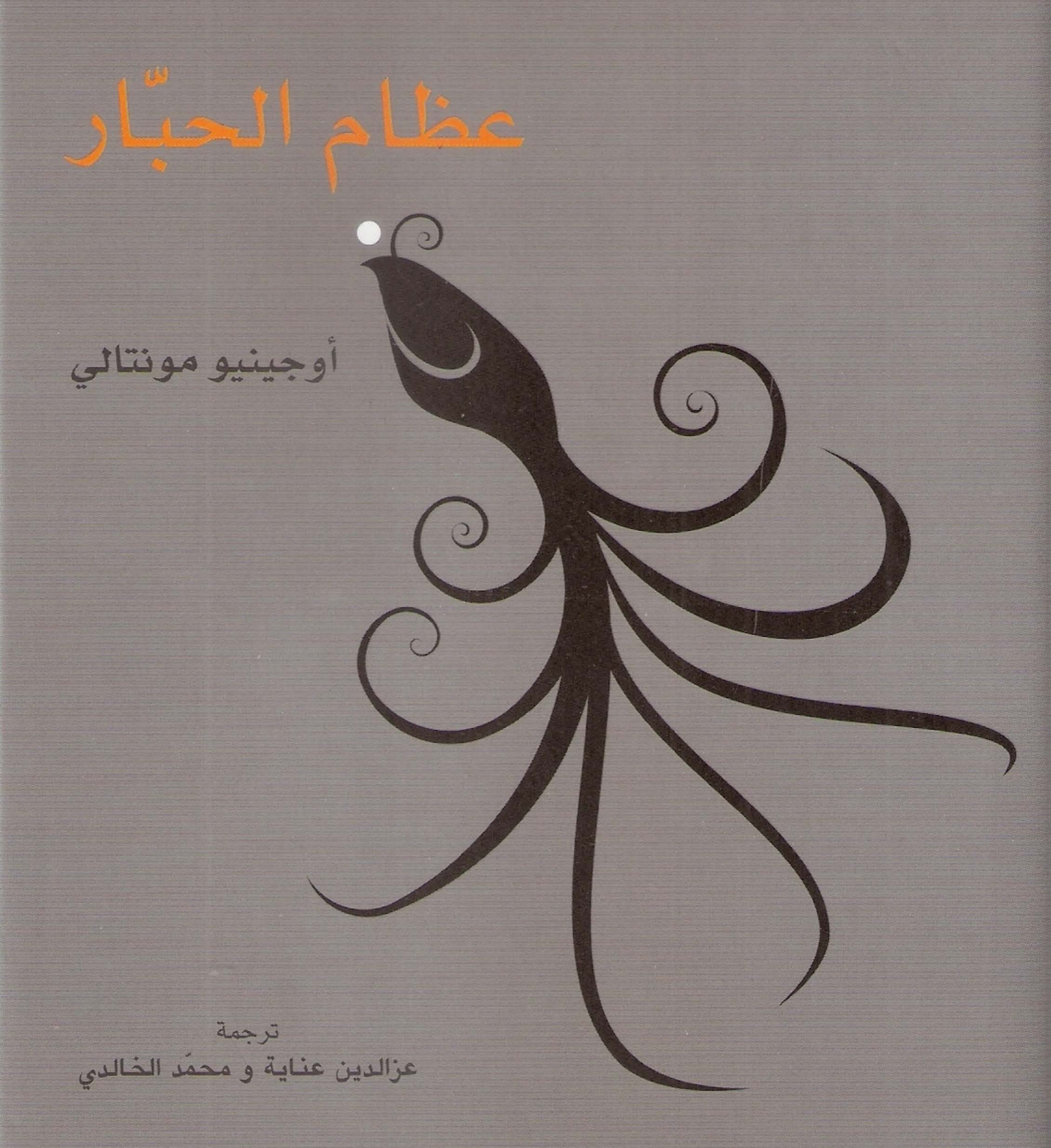
عظام الحبّار

أوجينيو مونتالي



ترجمة

عزالدين عناية و محمّد الخالدي

نبذ عن الشاعر:

أوجينيو مونتالي (1896–1981م): شاعر حاز على جائزة نوبل سنة 1975. يعدّ من كبار شعراء إيطاليا في التاريخ الحديث. عاش في مستهلّ حياته فترة تاريخية مضطربة، كان أثرها جليا على تكوينه وشاعريته، لعلّ أشدّها وطأة حقبة الفاشية. صاغ شعره على وقع التحوّلات المحلّية والعالمية. ديوان «عظام الحبّار» (1925)، إبّان أوج الفاشية، «المناسبات» (1939)، مع إرهاصات الحرب العالمية الثانية، «الزوبعة وأشياء أخرى» (1956)، واكبت قصائده وقائع الحرب وآثارها.

شعر

عظام الحبّار

أوجينيو مونتالي

ترجمة: عز الدين عناية
محمد الخالدي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

PQ4829.O565 O812 2010
Montale، Eugenio، 1896-1981.
Ossi Di Seppia1920--1927
عظام الحبار : شعر / تأليف أوجينيو مونتالي : ترجمة عز الدين عناية،
محمد الخالدي. - ط.1. - أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
163ص : 21x14 سم.
ترجمة كتاب : Ossi di seppia : 1920-1927.
تدمك: 978-9948-01-550-5
1 - الشعر الإيطالي-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية. 2 -الأدب الإيطالي-العصر الحديث.
3 -الشعر العربي-العصر الحديث-المترجمات من الإيطالية. أ-عناية، عز الدين. ب- خالدي، محمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:
Eugenio Montale
Ossi Di Seppia1920-1927



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.ipocan.it

Via Alberto Caroncini, 19 - 00197 Roma (Italia) - Tel +39-06-8084106 + 39-06-8080710
Fax +39-06-8079395 - e-mail: ipocan@ipocan.it

عظام الحبّار

الفهرس

مقدّمة 09

عند العتبة

ابتهج إذا كانت الريح 15

حركات

أشجار الليمون 19

بوق إنجليزي 22

لكأنّه حلم 24

نشاز 26

قصائد مهداة إلى كاميلّو سباربَرو

مقهى في رابالّو 31

هجائية 34

نواويس

إلى أين تمضي الفاجرات... 37

الآن وقد انطمرت... 39

النار المحتدمة 40

لكن أين نبحث عن قبر... 41

أشعار أخرى 43

ريح وبيارق........................... 45

أيّها العسلوج المتدلّي على الحائط.................... 47

عظام الحبّار

لا تطلب منا........................... 51

نغفو شاحبين........................... 52

لا تحتم أبداً........................... 54

أفكّر ثانية........................... 56

لا أطلب منك........................... 58

هبْ لي عبّاد الشمس........................... 59

كثيراً ما صادفت........................... 60

ما عرفوه عنّي........................... 61

بورتوفينِري........................... 63

أعرف الساعة........................... 64

هالة الظهيرة........................... 65

أيتها السعادة........................... 66

من حقل القصب........................... 67

لربّما رأيت........................... 68

فالموربيا 69
فيما كانت يدك........................... 70
رقصة الأطفال 71
صفير صرصار........................... 72
في قعر البئر 74
ارس بزوارقك........................... 75
هدهد........................... 76
على الجدار 77

موج متوسّطي

على رأسي المائل........................... 81
أنت أيّها القديم 82
أحياناً وأنا... 84
توقفت أحياناً... 86
أحياناً تزف الساعة... 88
نحن لا نعرف أيّ غد 90
وددت لو........................... 92
هل أستطيع على الأقل........................... 94
بدّد إذا شئت........................... 96

هاجرة وظلال

نهاية طفولة 101

الباهرة فوق الصخر 109

ريح السموم 111

ريح الشمال 113

شمأل 115

فسقية 117

رعوية 118

دفْق 121

جرف 124

أرسينيو 127

خادرة 132

تموّج 137

في الفراغ 142

البيت على البحر 144

الموتى 147

دلتا 150

لقاء 152

سواحل

نهر 159

مقدّمة

أوجينيو مونتالي هو أحد الثلاثة الكبار إلى جانب كلّ من جوزيبي أونغاريتي (1888- 1970م) وسلفاتوري كوازيمودو (1901-1968م)، الذين برزوا في الربع الأول من القرن العشرين. ولا يزال تأثيرهم في الشعر الإيطالي مستمراً إلى يومنا هذا، فقد قطع هؤلاء الثلاثة مع السائد والمألوف، فتخلّوا عن البلاغة المترهّلة والغنائية الفجة، لينحتوا لغة جديدة ويُقيموا مناخات مغايرة، تنسجم وروح العصر، الذي اتسم بالصخب والبحث عن الجدة والاختلاف.

ويعدّ هؤلاء الثلاثة، بلا منازع، من رواد ما يسمّى «بالشعر الهرمسي» أو «الهرميطيقي» في إيطاليا، فقد تأثّر ثلاثتهم بشعراء فرنسيين على رأسهم مؤسّس الشعر الهرمسي الأوّل ستيفان مالارمي (1842-1898م) إلى جانب أرتور رمبو وبول فاليري وسواهما ممّن عرفوا بالغموض والإبهام.

وككلّ الشعراء الكبار توفّر هذا الثلاثي على ثقافة واسعة قلّما توفّرت لغيرهم، كما يدلّ على ذلك اهتماماتهم المتعدّدة التي شملت مجالات معرفية شتى.

ويسعدنا اليوم أن نقدّم إلى القارئ العربي باكورة أعمال أوجينيو مونتالي: «عظام الحبار» الصادرة عام 1925، والتي أسست لمسيرة شعرية متفرّدة توّجت بحصول صاحبها على جائزة نوبل للآداب

عام 1975.

ورغم أنّ العادة قد جرت بألاّ نفصل مونتالي عن زميليه، إلاّ أنّ الموضوعية تقتضي منّا بأن نشير إلى أنه الأكثر تأثيراً في الشعراء الإيطاليين، فمونتالي ليس شاعرا فذّا وحسب بل هو أيضا مترجم وناقد أدبي وفني وصحفي محترف وقاص بارع وموسيقي واسع الاطلاع ورسام ومستشار إعلامي في التلفزيون. وقد عيّنه الرئيس الإيطالي جوسيبي ساراغات عام 1967 عضوا في مجلس الشيوخ مدى الحياة، تقديراً لمواهبه المتعدّدة ولمكانته المتفرّدة في المجال الثقافي. وبفضل ما امتاز به من كثافة وعمق، فإنّ شعره يشكّل واحداً من أسمى التعبيرات المعاصرة للالتزام الشعري.

ولد أوجينيو مونتالي في جنوة عام 1896، وتلقّى تعليما كلاسيكيا أثراه بمطالعاته الواسعة. وكان ينوي أن يتخصّص في الغناء الأوبرالي، لكن وفاة أستاذه واندلاع الحرب العالمية الأولى حالا دون ذلك. وقد انخرط بين عامي 1917 و1918 في الجيش كضابط في المشاة. وبعد عودته إلى مسقط رأسه انخرط مونتالي في النقد.

وفي عام 1925 ظهرت باكورة أعماله «عظام الحبّار»، مع أنه لم يكن ينوي أن «يتخصّص» في الشعر، كما كان يقول، ففي تلك الفترة لم يكن الناس يعبؤون بالشعر بل بالسياسة، حتى إن ناشره استغرب عندما أرسل إليه ذات يوم مقالة سياسية، لأنّ الشعراء في رأي هذا الأخير، غير معنيين بالسياسة، ومع ذلك، فقد أصبحت هذه

المجموعة الإنجيل الشعري لجيل بكامله.

ولهذا الاحتفاء ما يبرّره: فبقطعه مع البلاغة السائدة التي كانت الفاشية الصاعدة تشجعها وتباركها، كشف مونتالي، وبنبرة حميمية تكاد تكون منغلقة، عن حقيقة العالم.

ولعلّ ما يميّز مونتالي أكثر عن أبناء جيله والجيل الذي سبقه هو ثقافته الأنجلوسكسونية والفرنكفونية الواسعة مما جعل منه مواطناً أوروبياً قبل الأوان، وذلك في فترة انطوت فيها إيطاليا على نفسها...

استقرّ مونتالي في نهاية الثلاثينيات في فلورنسا، العاصمة الثقافية آنذاك، حيث عقد صداقات أدبية وفنية كثيرة. لكنّ الفاشيين فصلوه من عمله، فاضطرّ، لتوفير لقمة العيش، إلى العمل في الترجمة.

وفي تلك الفترة، ظهرت مجموعته «المناسبات» التي استقبلت، بدورها، بحفاوة بالغة من قبل النقاد. وقد تنبّأ الشاعر بوقوع الكارثة التي كانت تترصّد أوروبا.

وفي خضمّ الحرب (1943) صدر له في لوغانو بسويسرا ديوان آخر هو «فينيستيري»، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، استقرّ عام 1948 في ميلانو حيث توزّعت أنشطته على أكثر من مجال: الصحافة والنقد الموسيقي والأدبي والسفر.

في الأثناء تتالت أعماله، فنشر ترجمته لمختارات من الأدب الأنجلوسكسوني، ومجموعة قصصية، ومراسلاته مع إيتالو سفيفو،

ومنتخبات من مقالاته وانطباعاته عن أسفاره (1969)، التي طغت عليها ذكرياته عن فرنسا.

ورغم أنّ بعضهم قد ذهب إلى أنّ قريحة الشاعر قد نضبت، إلاّ أنّ وفاة زوجته عام 1963 قد أعادته، من جديد، إلى أحضان عرائس الشعر. وهنا أيضا بدا مونتالي الإنسان غير منفصل عن مونتالي الشاعر. وهذا الانطباع تأكّد أكثر في ديوانه «المشبعة»، الصادر عام 1971، الذي طغت عليه نبرة جديدة عكست التحوّلات السياسية والاجتماعية، التي يعيشها بلد مثل إيطاليا، أصبح فريسة للقلق والإرهاب والأزمات السياسية العنيفة والمتتالية. وهنا بدأ «فصل شعري جديد»، اتخذ شكلا «ينزع نحو النثر ويرفضه في الوقت نفسه».

وقد عرّى مونتالي، في ديوانه هذا، الحضارة الغربية المعاصرة في مسحة من التشاؤم تذكّرنا بمجموعته الأولى «عظام الحبّار».

وقد استمرّت هذه النبرة حاضرة في أشعاره وكتاباته اللاحقة التي امتزج فيها التشاؤم بالسخرية المُرّة أحيانا. أمّا في ما يتعلّق بالشكل، فقد استلهم مونتالي التوزيع الموسيقي إذ تنتظم أغلب مجموعاته حركات تذكّرنا في تركيبتها بالأعمال السمفونية...

ويسعدنا اليوم أن نقدّم إلى القارئ العربي ترجمة لمجموعته الشعرية البكر، وهي من العلامات البارزة في حركة الشعر الإيطالي الحديث على أن نتبعها لاحقاً بأعمال أخرى.

(المترجمان)

عند العتبة

ابتهج إذا كانت الريح

ابتهج إذا كانت الريح التي تدخل البستان
ترفع فيه موجة الحياة:
هنا حيث يغرق أحد الموتى
ذكريات متشابكة،
لم يكن حديقة البتة،
بل صندوقاً للذخائر.

حفيف الأجنحة الذي تلمحه ليس طيراناً،
بل رجّة الحضن الأبدي؛
انظر إلى هذه القطعة المستوحدة
من الأرض تتحوّل إلى بوتقة.

جيشان يسيّج هذا الجدار المتهاوي.
إذا تقدّمت فسوف تعثر
ربّما على الشبح الذي ينقذك:
هنا تصمت الحكايات وتبطل الأفعال من أجل لعبة المستقبل.

ابحثْ عن زرد مقطوع في الشبكة
يحاصرنا، اقفز، أهرب
امض، لقد صلّيت من أجلك. الآن يصير
الظمأ أقلّ وطأة. والصدأ أقلّ حدّة...

حركـــات

أشجار الليمون

اصغ إليّ: الشعراء المتوّجون
لا يتحركون إلا وسط النباتات الغريبة:
شمشاد، جنبة الرّباط، أقنثة
أما أنا فأحبّ الطرق المؤدّية إلى القنوات المعشبة
حيث يمسك الصّبية، وسط البرك
نصف الجافة سمكة هزيلة،
الممرّات تنحدر، على امتداد الضفاف
بين أجمات القصب
وتفضي إلى البساتين، بين أشجار الليمون.

نعم الأمر أن يموت صخب العصافير
غريقا في السماء الصافية:
بوضوح أكثر تتبادل الأغصان الوردية الهسيس
في الهواء الذي يتحرّك بالكاد
والأحاسيس التي تمنحها هذه الرّائحة
التي لا تعرف كيف تنفصل عن الأرض

وفي القلب تنهمر عذوبة قلقة

هنا تهدأ، بأعجوبة،

حرب الأهواء الشاردة

هنا، يؤول إلينا، حتى نحن الفقراء، نصيب من الثروة،

ألا وهي رائحة الليمون.

أوَترى، هذا الصمت الذي

تسترخي فيه الأشياء

وتبدِو قاب قوسين أو أدنى

من كشف آخر أسرارها.

أحياناً نتوقّع

اكتشاف عيبٍ من عيوب الطّبيعة،

نقطة توقف العالم، الحلقة التي لا تصمد،

الخيط المطلوب تسليكه الذي يقودنا أخيرا

إلى جوهر حقيقة ما.

النظر ينقّب في الجوار

الرّوح يتحرّى، يعطي، يفرّق

في الطّيب الذي يزداد

عندما يصبح النهار أشدّ وهنا
إنّه الصّمت حيث نرى
في كلّ ظلّ بشريٍّ ينأى
بعضاً من ألوهة مفاجئة.

لكنّ الوهم يتراجع ويعيدنا الزمن
إلى المدن الصّاخبة حيث تظهر السّماء الصّافية
قطعة قطعة فقط، في أعلى علّيين بين التموّجات
المطر يُنهك الأرض، بعد ذلك.
ويتراكم حزن الشّتاء فوق البيوت
يصبح الضوء ضنينا ، والروحُ كظيمةً
عندما يبدو لنا، ذات يوم، من كنّة
لم يُحكم إغلاقَها أصفرُ أشجار الليمون
بين أشجار إحدى السّاحات
وها هو ذا جليد القلب يذوب
وها هي ذي أبواق الوهج الذّهبية
تُجري فينا أناشيدها.

بوق إنجليزي

الريح التي تعزف هذا المساء، حذرة

– تذكر بقرقعة صفيحة–

على آلة أشجار كثيفة

وتكنس الأفق النحاسيّ

حيث تستطيل خيوط من النور

كطائراتٍ ورقية في السماء المليئة بالرّنين

(غيمات مسافرة، ممالك السموات الصافية

مدن أسطورية شامخة

أبواب لم يُحكم غلقها...)

والبحر وهو يتكشّف

حرشفة فوق حرشفةٍ

يرسل إلى الأرض إعصاراً

من نفثات مزبدة.

الريح التي تولد وتموت

في الساعة التي تسقط سوداء

عساها أن تعزف لك أيضاً

هذا المساء، أيتها الآلة غير المدوزنة

أيها القلب.

لكأنّه حلم

أتوجّس عودة النهار
من خلال بريق الفضة
القديمة على الجدران،
ألق يرسم النوافذ المغلقة.
ها هي الشمس تعود
ولكن دون الأصوات الغامضة
دون القرقعة المعهودة.

لماذا؟ أؤمن بيوم وساعات من الفتنة
إنها مناظرة متعادلة جدّاً
أنتقم. إنّها تفيض، القوّة التي
كانت تملأني، أنا اللاوعي الساحر
منذ زمن بعيد. أجل سأكشف عن نفسي
سأهدّم دوراً منيفة، وممرّات عارية.

قبالتي تماماً ستكون لي بلاد من الثّلوج البكر

لكنّها خفيفة كما في الوشي

شعاع فاتر سينساب من سماء تغمرها الثلوج.

أما الغابات والتلال المسكونة بضوء سرّي

فستغني لي أناشيد الفرح

سعيداً، سأمضي أقرأ العلامات

السوداء للأغصان على هذا البياض

كأبجديّة أصلية.

وسيتجلّى لي الماضي

في لحظة واحدة.

ما من صوت سوف

يربك هذا الحبور المستوحد.

سينطلق في الهواء

أو سيجثم ديك مارس صغير[1].

---

(1) المقصود بالديك هنا هو الهدهد .

نشاز

إستيرينا، سنواتُك العشرون تهدّدك،
غيم رمادي وردي
يحتويك داخله شيئاً فشيئاً
أجل. هذا تعرفينه ولا تخشينه
مغمورة، سنراك
في الدّخان الذي تمزّقه
الريح وتكثّفه، محتدما
ثمّ نراك تنبجسين من موجة الرّماد
أكثر سمرة من أي وقت مضى،
باسطةً نحو أبعادٍ أكثرَ شحنا بالمغامرة
وجهك الصافي الشبيه
بديانا صاحبةِ القوس.
فصول الخريف العشرون تنمو
فصول ربيع مجنحة تلفك
هو ذا بشير يرن من أجلك
في الأفلاك الفردوسية

عسى ألاّ يُرجع بالنسبة إليك
صوت إبريق مشروخ
وهو يُقرع. نذر عليّ ليكوننّ
جوقة لا توصف من الجلاجل.
الغدُ الغامضُ لن يستطيعَ ترويعَكِ
برشاقة تتمطّطين
فوق صخرة الملح اللماعة
وتحرقين بالشمس أطرافك.
تشبهين العظاية
إذ تمكثين هكذا فوق الحجارة العارية
أنت الشباب يترصّدك
هو، جديلة عشب يشدّها الطفل.
الماء هو القوّة التي تنعشك
في الماء تجدين نفسك ثانية وتتجدّدين:
نحسبك، نحن، طحلباً، حصاةً ملساء،
كائناً بحرياً
لا يتآكله الملح
لكنّه يعود إلى الشاطئ أكثر نقاء.

لكم أنت على حقّ.

آه، رجاء ألاّ تعكّري

حاضراً باسماً بنبوءات قاتمة

ذلك أنّ مرحك يعني المستقبل

وهزّة كتفين

تفكّك معقل

غدك الغامض.

تنهضين وتتقدّمين فوق الجسر العائم الضيّق

أعلى الدوامة المزمجرة

يرتسم ظلّ وجهك

على خلفية من اللؤلؤ.

تتردّدين في قمّة الخشبة المرتجفة

تضحكين، وكما لو أن ريحاً قد حملتك،

تقعين في حضن

صديقك الإلهي

الذي يسارع للإمساك بك.

نتطلّع إليكِ، نحن الذين من جنس

من يظل أرضاً.

قصائد مهداة إلى كاميلّو سباربَرو[1]

(1) شاعر من منطقة ليغوريا، كان تأثيره كبيرا على مونتالي أيام الشباب.

مقهى في رابالّو

1

أعياد الميلاد في المدفأة
المطهّرة المطلية بالأبخرة
المتطايرة من الفناجين،
غموض مر بك للأضواء
خلف زجاج النوافذ المغلقة،
صور جانبيّة للنساء على الزجاج
بين بريق الأحجار الكريمة وتموّج الحرير...

ها هنّ
عرائس البحر الجديدات يصلن،
إلى شواطئ موطنك. ولم تكن هناك
يا صديقي، كاميلّو
مؤرخ الارتعاشات والرغبات.

تُسمع فرقعة كبرى في الشارع.

لقد مرّت في الخارج
موسيقى الأبواق المعدنية
ودفوف الأطفال الفضية
التي تنأى عن الوصف:
أجل... هي ذي موسيقى البراءة تمر.

عالم قميء كان يمضي

وسط ضجيج صغار الحمير والنقّالات
وثغاء خراف الورق المقوّى وفي لمعان
سيوف الورق وهي في غمدها.
مرّ الجنرالات
بقبعاتهم المقرّنة المصنوعة من الكرْتون
ملوّحين برماحٍ من النوغا.
ثم كانت الفرقة
وهي تحمل أعقاب الشموع والفوانيس

والعلب الرنانة

التي تصدر الصوت الأكثر شيوعا،

هذا الجدول الرقيق الذي يفتن

الروحَ الحائرة:

(وكنت أسمع، منذهلا).

مرّ الحشد الفوضوي وسط دوي

آلاف الأرجل للقطيع الذي أفزَعُه

الرعد الذي ما زال قريبا جدّا.

وجد ملاذاً في المرعى

الذي لن يستطيع الاخضرارَ البتّةَ

من أجلنا.

2

سباربَرو، طفلٌ غريبُ الأطوارِ
يطوي أوراقاً متعدّدة الألوان
يستخرج منها زوارقَ يعهَدُ بها إلى طينِ
الجدول، انظر إليها تنزلق إلى الخارج
احرص عليه أيها الرجل النزيه الذي يمر:
اتبع بعصاك الأسطول الهشّ
خشية أن يهلك، أرشده إلى الميناء،
ثلاث حصوات وممر.

نــواويس

إلى أين تمضي الفاجرات...

إلى أين تمضي الفاجرات

إلى أين تمضي الفاجرات ذوات الشعر المجعّد

حاملات على أكتافهنّ جرارَهُنَّ المليئة

حازمات الخطى وفي منتهى الخفة.

في الأسفل واد ينفتح

سُدى ينتظر الحسنوات

اللواتي تظللهن كرمة فوق العريش

تتأرجح منها العناقيد المدلاّة.

الشمس التي تتسلّق السماء

المنحدرات التي تُرى من بعيد

فقدت ظلالها الخفية: في اللحظة

الناعمة تحدّد الطبيعة المصعوقة

هيئات مخلوقاتها السعيدة –هي الأم غير الشرسة–

في أشكال خفيفة.

أهو عالم يغفو أم عالم يتباهى

بوجود لا يتغير. من يستطيع قول ذلك؟

أيّها الإنسان العابر، امنحه أنت أيضا

أفضل غصن من بستانك

ثم واصل؛ ففي هذا الوادي

لا يتعاقب الظل والنور.

بعيداً جدّاً من هنا يقودك طريقك

ما من ملجأ بالنسبة إليك. فقد شبعت موتا:

واصل سير كواكبك.

الوداع إذن إلى الأبد

أيتها الأميرات ذوات الشعر المجعّد

احملن على أكتافكن جراركن المليئة.

الآن وقد انطمرت...

الآن و قد انطمرت خطوتك

حذرة على مرمى حجر

من هنا يعد لك

مشهد أكثر ندرة

لقد أغلق ثانية وإلى الأبد

باب المعبد الصدئ

العتبة المعشوشبة ينتشر

نور عظيم

وهنا، حيث لن يسمع البتة

وقع خطى بشرية ولا الألم المصطنع

يراقب، ممدّدا على الأرض، كلبٌ هزيلٌ

لن يتحرّك البتة

في هذه الساعة التي يُتوقّع أن تكون خانقة.

فوق السقف ارتفعت، في منتهى الأبّهة

غيمة صاعدة.

النار المحتدمة

النار المحتدمة

في الموقد تخضرّ

والهواء الكثيف يضغط

على عالم ملتبس.

شيخ منهك

ينام بالقرب من القدر

نومة المهزوم.

في هذا النور البرونزي

لا تفق أيها النائم

وأنت أيها العابر

تقدّم في صمت. ولكن قبل ذلك

أضف، ولو غصنا إلى نار الموقد

وصنوبرة ناضجة إلى السلة

المرمية في الركن: تسقط منها أرضاً

المؤن المحتفظ بها

للرحلة الأخيرة.

لكن أين نبحث عن قبر...

لكن أين نبحث عن قبر
الصديق والعاشق الوفيين،
عن قبر المتسوّل والطّفل
لكن أين يمكن العثور على مأوى
لمن يجنون جمرَ
اللهب الأصليِّ
أو... لتتلقّ المرمدة، بإشارة سلام
خفيفة كلعبة صبيانية، صورهم.
أترك حشد الحجارة الصّموت
إلى البلاطات المهجورة
التي تحمل أحياناً نقش
الرّمز الأكثر إثارة للقلق،
ذلك أنّ البكاء والضحك
ينفجران منه، أيضاً، توأمين
حزيناً، ينظر إليه الحِرَفيُّ المتوجه إلى عمله
وإرادة عمياء تنبض بعدُ في معصمه.

بين هذه، أبحث عن الزخرف الأول
الذي يتقن، بفضل الذكرى المتبقية
اجتذاب الروح البدائية
على طرقات المنافي الوديعة
شيء مّا... عبّاد شمس يتفتح
ورقصة الأرانب من كلّ جهة...

أشعار أخرى

ريح وبيارق

هبة الريح التي حملت أريج
البحر المرّ إلى الأودية اللولبية
وهي تنقض على شعرك وتبعثره
إنّه تشابك قصير على خلفية سماء شاحبة.

الزوبعة التي ألصقت فستانك بجسدك
وقد وقّعتك، سريعة، على صورتها
وهي تعود، بعيداً عنك، نحو
هذه الأحجار التي يدلّيها الجبل على دوامة الأعاصير.

وبما أن الهيجان السكران قد هدأ،
فقد استعادت الحديقة الآن الهبوب الخافت
الذي هدهدك، وأنت ملقاة على الأرجوحة
بين الأشجار، في طيرانك من دون أجنحة.

وا حسرتاه. فالزمن
لا يشكّل حباته مرتين أبدا بطريقة متساوية.
وهنا يكمن الخلاص: ولو كان الأمر خلاف ذلك
لأحرقت الطبيعة أسطورتنا في لمح البصر.

تدفّق فريد – يجلو الآن
مجموعة من الضّياع الصغيرة
تبدو منضدة على سفح أحد المنحدرات
في هيئة مهرجان كبير وسط رايات العيد.

العالم موجود... ذهول يجمّد القلب
الذي يستسلم للاستيهامات التائهة
رسل الليل، ولا يمكنه أن يتصوّر
بأنّ للناس الجياع عيدَهم.

أيّها العسلوج المتدلّي على الحائط

أيّها العسلوج المتدلي على الحائط
شبيهاً بإبرة القيلولة
التي توقع سباقَ
الشمس وسباقي المتناهي القصر.
دليلاً للأفول،
تضرب جذراً في الملاط
الذي يتشرّب انعكاسات الشمس
الملتهبة، وتلقي بالعتمة على عجلتك
التي تنشرها في الظل على الحائط.
سأم لا ينتهي هي القبّة
التي تنزع منك قريناً
هائماً، دخاناً
وتنوء بالقِبّة الأكثر ثقلاً على الدّوام والسّرمدية.

لكنّك لم تعد تظلّ هذا الصباح
دعامتَك: وشاحٌ

كنتَ نهبتهَ ليلاً

من عصابة غير مرئية يتدلى

من قمّتك ويتألق

مع أشعة الشمس الأولى.

هناك حيث يتعرّى سهل البحر

تميل سفينة ثلاثية الصواري

مثقلةً بالغنائم والمساجين المؤبّدين

جانِبَها عند هبوب الرّيح، وتبتعد

من ينحني من علٍ يلحظْ

بأنّ السطحَ يتوهج، وأن مِقبضَ الدفّةِ

لا يتركُ أيّ أثرٍ.

عظام الحبار

لا تطلب منا...

لا تطلب منا كلمةً تطوّق من جميع الجهات
روحنا البشعة، وتعزّرها بأحرف من نار
وتتألّق كزعفرانٍ
ضائعٍ في غضراء مغبرّة.

آه، الإنسان الذي يمضي بخطى واثقة،
صديقا للآخرين وصديقا لنفسه،
غير مبالٍ بظله الذي
يرسمه القيظ على الجدار المتآكل!

لا تطالبنا بصيغة من شأنها أن تفتح لك عوالم
بل مقطعاً غريباً ويابساً مثل غُصنٍ
هذا فقط ما يمكننا قولهُ اليوم:
ما لا نكونهُ وما لا نريده.

نغفو شاحبين

نغفو شاحبين متأمّلين
بالقرب من جدار سياج شديد الحرارة
نسمع، وسط العليق والعوسج
طيران الشحرور المصفق وهسيس الثعابين.

في شقوق الأرض أو فوق النبتة اليابسة
نراقب أرتالَ النمل الأصهب
تتكسّر تارةً وتارةً تتشابك
فوق قمم حجارة متناهية الصغر.

نراقب وسط الأوراق
نبضَ حراشفِ البحر البعيد
في حين يرتفع من القمم الصلعاء
أزيز الصراصير المرتعش.

وأثناء السير تحت الشمس الباهرة

نشعر، يا للأعجوبة،

بمدى الحياة ومعاناتها

في هذا السير على طول السور

الذي يحمل في أعلاه شظايا زجاجة.

لا تحْتمِ أبداً

لا تحتم أبداً بظل
هذه الأجمةُ شديدةُ الخضرة
الشبيهةُ بفرخ صقرٍ ينقضّ
كالبرق وسطَ الحرارة.

لقد آن الأوان للتخلي عن حقل القصب
المنهك الذي يبدو نائماً
ومراقبةِ أشكالِ
الحياة التي تتفتَّت.

نمضي وسط غبارٍ
صَدَفِيٍّ اللونِ، مرتعش
في انبهار يعمينا
إن لم ينهكنا.

ومع ذلك، تحسّ به في تلاعب الموجات الجرداء
الذي يتكاسل في ساعة الضيق هذه
ألا لا نلقيَنّ مرّة أخرى بحياتنا التائهة
في هاويةٍ بلا قرار

شبيهةٍ برواق الصخور هذا
الذي يبدو لنا وكأنّه ينسلّ
إلى خيوطٍ من الغمام
هكذا هي أرواحنا الفانية
والتي يؤجّجُ فيها الوهمُ
ناراً من الرماد
تضيع صوبَ زرقة
الضوء الصافي، يقيناً.

أفكّر ثانية...

إلى: ك

أتذكر ثانية ابتسامتك

ذلك الماء الرقراق الذي

لمحتُهُ في حصباء شاطئٍ رملي،

مرآة ضيّقة فيها تتأمّل شجرة لبلابٍ أحداقها

وعلى كلّ شيء اشتعال سماءٍ بيضاءَ اللون، هادئة.

هذه هي ذكراي، ولا أستطيع القول أيها النائي

ما إذا كانت روح بريئة تفصح عن نفسها، حرّة

انطلاقاً من وجهك

أو ما إذا كنت من أولئك الذين ينساقون

وهم تائهون، داء العالم

والذين يحملونَ معهم آلامهم، كطلسم.

لكن هذا، إذا جاز لي أن أقول ذلك، هو فكرة،

صورتك وهي تغرق الغضب والنزوات

تحت موجة ساكنة

وفجأة يسطع وجهك في ذاكرتي الرّمادية

مستقيما كرأسِ سعفة فتية

لا أطلب منك...

لا أطلب منك

لا أطلب منك، حياتي لا ملامح ثابتة
ولا وجوها مقبولة ولا أملاكا
ففي رقصتك الدائرية القلقة
أصبح للعسل والأفسنتين المذاقُ نفسُه.

القلب الذي يزدري كلّ حركة
تهزّه انتفاضاتٌ نادرةٌ
هكذا يندلع في صمت الحقول
أحياناً، طلقٌ ناريّ.

هبْ لي عبّاد الشمس

هبْ لي عبّادَ الشمس لأنقله
إلى أرضي التي لفَحَتها الريح المالحة،
وليعرض اليوم كلّه قلق وجهه الأصفر
لصفائح السماء الزرقاء اللامعة.

إلى الوضوح تنزع الأشياء الغامضة،
الأجساد تنهك نفسها في دفق من الألوان.
والألوان في الموسيقى -التواري
هو، إذن، المغامرة الأسمى.

أجل: احمل إليّ النبتة التي تقودنا
إلى حيث ستنبجس الشقوقُ الشقراء
وتتضوّع الحياة كما العطر،
هبني عبّاد الشمس الموله بالنور.

كثيراً ما صادفت...

كثيراً ما صادفت ضنك العيش:
كان ذلك هو الجدول المختنق وهو يفور
كانت تلك هي الورقة التي تنكمش على نفسها
متيبّسة، كان ذلك هو الحصان المجندل.

من الخير لم أعرف شيئا عدا أعجوبة
اللامبالاة الإلهية الظاهرة:
كان ذلك هو التمثال في غفوة الظهيرة والغيوم
والصقر وهو يحلّق عالياً.

ما عرفوه عنّي...

ما عرفوه عنّي
ليس سوى الطّلاء الخارجي.
الثياب التي ترتديها
مغامرتنا البشرية.

خلف اللوحة
ربّما كانت السماءُ الصافية هادئةً
مجرّد ختم
كان يمنع السماء الصافية.

أم أنّ التحوّلَ الغريبَ في حياتي
كان يحصل ها هناك
ومن تحوّل طين بركاني
تحصل الولادة التي لن أراها.

هكذا سيظلّ هذا اللحاء

زاديَ الحقيقيَّ

النارَ التي لا تهدأ سُمّيتْ

بالنسبة إليّ: الجهلَ

إذا رأيتم ظلاّ فاعلموا

أنّه ليس ظلاّ، إنه أنا

وإنني لا أستطيع فصله عنّي

وتقديمه هديّة إليكم.

بورتوفينِري(1)

هنا يتدفّق نهر تريتون

أمواجاً تلامس

درجات إحدى الكنائس

وكلّ ساعة آتية

هي ساعة قديمة. كل ريبة

تقاد باليد

كحيوان أليف.

هنا ما من أحد يرى نفسه

أو يصيخُ السمعَ إلى نفسه

هنا أنت عند الينابيع

واتخاذ القرار لا معنى له

ستنطلق لاحقا مرّة أخرى

لتتخذَ لك وجهاً.

---

(1) ميناء بحري.

أعرف الساعة

أعرف الساعة حيث تشقّ السطح
الأكثر هدوءاً تكشيرة قاسية
للحظة انكشف حزنٌ غير مرئيٍّ
لكن حشودَ المارين في الشارع لا تراه.

أنتن، يا كلماتي، افضحنَ، عبثاً اللدغةَ
السرّية التي تعصف في القلب
الحكمة الأكثر صدقاً هي حكمة من يعرف كيف يصمت
نشيد السلام هو النشيد الذي ينتحب.

هالة الظهيرة

تنتشر هالة الظهيرة
عندما لا يعود هناك ظلّ في الأشجار
وعندما تظهر في الجوارِ المظاهرُ
وحشيةً أكثر فأكثر تحت فيض النور.

في الأعلى، الشمس والساحل الرملي الأجرد
إذن لم يمرّ يوميْ قط.
أجل، الساعات تكمن وراء الجدار
الذي يحتوينا عند الغروب الباهت.

في الهواء الجاف
يرفرف طائر فوق بقايا حياة
المطر الهنيء خلف هذه الحرارة الباعثة على الحزن
لكن الفرح الأكثر اكتمالاً هو في الانتظار.

أيتها السعادة

نسير فوقك أيتها السعادة التي أدركنا
كما نسير على حدّ النصل
أنت الوميض الذي يترنح في العيون
وعند سفح المدى الثلجي وهو يتصدّع
إذن لا يلمسك من يحبك أكثر.

إذا ما أدركْتَ النفوسَ التي اجتاحها
الحزن وأضْأتها، فصباحك
لطيفٌ ومثيرٌ كالأعشاش في الأطناف
لكنْ ما من شيءٍ يعوّض بكاء طفل
هربَتْ كرتُهُ بين الجدران.

من حقل القصب...

من حقل القصب ترتفع طيور البلشون
من جديد نحو السماء الصافية التي تمتدّ دون صدع،
من الحديقة الظمأى تنتصب الأفنان الصغيرة
خارج السور حيث تركد الحرارة.

من البحر وهو يشيب تصعد
نحو السماء ساعةُ انتظارٍ جوفاءُ
شجرةٌ من الغيوم تنمو على الماء
ثم تنهار كما لو كانت من الرّماد الساخن.

لكم توحشين، وأنتِ غائبةٌ في هذا الصّقْعِ
الذي يحدسك والذي من دونك يضني
أنت بعيدة، لذلك فكل ما يخرج عن مساره
يتقوّض ويتلاشى في الضباب.

لربّما رأيت...

لربّما رأيت، وأنا أسير، ذات صباح
في الهواء القاحل كالزجاج، وقد استدرت
المعجزة وهي تتحقق
العدم في ظهري وورائي
الفراغ، مضافا إليه هلع السكير.

ثم بدفقة واحدة، كما على الشاشة
تنهض الأشجار والبيوت والتلال من أجل السراب المعتاد
لكن سيكون الأوان قد فات وسأمضي مطأطأ الرأسِ
بين الناس الذين لا يلتفتون، وحيداً مع سرّي.

فالموربيا(1)

فالموربيا، في قاعك كانت تركض
عند ظهور الرياح غيومٌ من النباتات
وفينا، نحن فريسة الصدفة العمياء
كان يُولد نسيان العالم.
صمتت البنادقُ في مجراه الوحيد
لم يكن يزمجر سوى «اللينو» الأجش
كان سهم يزهر فوق غصين
ثم يدمع، شاحبا في الهواء.

كانت الليالي الصافية فجراً كُلُّها
وكانت تحمل ثعالب إلى مغارتي
فالموربيا ليست سوى اسم –والآن
وقد شحبت الذكرى، هي أرض
لا وجود لليّلِ فيها.

(1) منطقة في شمال إيطاليا، كانت مسرح العديد من المعارك الحربية في مطلع القرن الماضي.

فيما كانت يدك...

فيما كانت يدك تختبر ملمسَ البيانو،
كانت عيناك تقرآن على الورقة
العلاماتِ المستحيلة، فتنكسر منها
كل نغمة من النغمات، صوتُ حداد.

أدركت بأن كل شيء من حولك يتأثر
بمرآك معطّلة، عزلاء، جاهلة
بالإضافة إلى ذلك لغتك، ومن خلف النوافذ
نصف المغلقة تَمْتَمَ صَفاءُ الماء.

في المربع اللازوردي مرّت
رقصة فراشات عابرة. وتحت الشمس تحرّكت أوراق
من الأشياء القريبة جدّاً لم يكن أيّ منها يعثر على كلماته
وكان جهلك الوديع هو جهلي وجهلنا.

رقصة الأطفال

رقصة الأطفال على الشاطئ الرملي
كانت هي الحياة منبثقة من اليباس
بين القصب القليل والعوسج
كان ينمو الدغل البشري في الهواء النقي.

كان المارّ يشعر بما يسبّبه
انتزاعه من جذوره القديمة من عذاب
في العصر الذهبي الزاهر، في الضفاف السعيدة
كان حتى الاسم والثياب نقيصة.

صفير صرصار...

صفير صرصار في مكان مّا
وسط الريح
ما إن أصيب حتى انطفأ
في الخدر الذي ينتشر.

فينا تنبثق عميقاً
وقد تفرّعت القريحة
السرية: عالمنا
يستمرّ بصعوبة.

إذا ما أشارت إليه اصبعك
تهاوت بقاياه التي تبدو رمادية
وقد عجز الفراغ على ابتلاعها.

ثم تلغى الحركة،

يتحوّل الصوتُ إلى صمتٍ

ونحو مصبّها تهبط

الحياةُ، قاحلةً.

في قعر البئر

في قعر البئر تُصدر البَكَرة صريرها.
يصعد الماء نهاراً ويضيع فيها
ذكرى ترتعش في السطل الملآن
في الدائرة النقية تضحك صورة.
أقرّب وجهي من الشفاه المتلاشية
يتغيّر شكل الماضي، يبدو عجوزاً
إنه ماضي شخصٍ آخَرَ...
ها هي ذي البَكَرة
تصرخ، تعيدك إلى القاع المظلم
رؤيا، مسافةٍ تفصل بيننا.

ارْسِ بزوارقك...

ارس بزوارقك الكرتونية
على الضفّة المحترقة ونم
أيها الطفل الصغير، صاحب الزوارق: عسى ألاّ تسمع
الأرواحَ الشريرةَ التي أقلعت أسرابها.

في الحديقة المسيّجة ترفرف بومة،
على الأسطح تنوء المداخن.
اللحظة التي تدمّر طيلة أشهر العمل المتمهّل
تقترب سرّية تارة فتصدع ونفساً أخرى، فتقتلع.

ثم يحدث الصدع: ربّما دون دويٍّ.
من شادَ يشعر بأنه مدان
إنها الساعةُ حيث لا ينجو سوى مركبٍ راسٍ.
اربطْ أسطولَكَ بين الحواجز.

هدهد

هدهدٌ، أيها الطائر السعيد

هدهدٌ، يا طائرَ الشعراءِ

السعيدَ المفترى عليه،

يا من انداحَ عرفُك على مَجْثَمِ

القنِّ الهوائيِّ، وتعطي وجهَكَ للريحِ

مُتخذاً هيئةَ ديكٍ

ولأنّ الزمن، بالنسبة إليك يتوقف

أيها الهدهد يا رسولَ الربيع

فإنّ فبراير لن يموت بعد الآن

كما ينحني بعيداً في الخارج

على حركة من رأسك

عفريتٌ مُجنّحٌ، فيما أنت تجهل ذلك.

على الجدار

على الجدار المتقشّر
يظهر، ظلاً ذا مقاعده متناثرة،
قوسُ السماء
محدوداً.

من يتذكّر حتى الآن النارَ
التي اشتعلت، محتدمةً
شرايينَ العالم: في استراحةٍ
جليديةٍ كثيفةٍ ضاعت الأشكالُ.

سأرى الرصيفَ من جديد غداً
والسورَ والطريقَ المألوف.
في المستقبل الذي ينفتح في الصباحات
تكون السفنُ المهجورة في المرساة.

موج متوسّطي

على رأسي المائل

على رأسي المائل
تقع، على شكل إعصار
غمغمةٌ من المُزاحِ اللاذع
الأرض تحترق، تخترقها
ظلال مشوهة هي أشجار الصنوبر البرّية
وهناك، في العمق، على البحر، ستارٌ
أكثرُ كثافةً عند النظر، من الأغصان،
هو النفس الثقيل المتدفّق على شكل رجّات
من الأرض الساخنة وهي تتعرّق.
عندما أدركني غليان المياه الأكثر أو الأقلّ اختناقا
التي تزدحم على امتداد الأرض الرملية:
فكان الانفجار أحيانا، مطر من الزبد
يسّاقط على الصّخور
أرفع وجهي، ثم ها هو الزعيق
يهدأ فوق رأسي ويندفع نحو المياه المدوّية
شرقرقان[1]، سهمان من الأبيض واللازوردي.

(1) الشرقرق: طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض وسواد.

أنت أيّها القديم

أنت، أيّها القديم، أنا منتشٍ من الصوت
الذي تنفثه أفواهك عندما تنفتح
نواقيس خضراءُ ترتمي
إلى الوراء وتمّحي.
بيت مواسمي الصيفية البعيدة
كان قريباً منك جدّا، أو تتذكّر ذلك
في البلاد حيثُ الشمس لهّابة
وحيث تغطّي الحشرات الهواء.
وكما في السابق، أصير لك اليوم حجارة،
موجة بحرية، لكن دون أن أتصوّر نفسي البتة
جديراً بدروس نفسك العظيمة: كنت أوّل من قال لي
بأنّ خميرة قلبي الضئيلة
ليست سوى لحظة من خميرتك.
وأنّ فيّ قانونك المغامر: أن أكون شاسعاً
متنوّعاً وثابتاً معاً،
وأن أتخلّصَ، هكذا، من كلّ دَنَسٍ

مثلَكَ أنت الذي ينعطف على الضفاف

بين الطوّافات والطحالب ونجمات البحر،

أنقاضَ لجتك عديمة الجدوى.

أحيانا وأنا...

أحيانا وأنا أنزل

المنحدرات الجرداء

التي أضحت نائية عن الخريف

الغني بالنسغ

الذي كان يترعها،

لم أعد أحمل في قلبي عجلة

الفصول ونضح

الزمن القاسي

لكن ذلك كان حدساً بك

يملأ روحي

وكلي دهشة في لهاث

الهواء الفاتر سابقاً

على الصخور في قارعة الطريق.

أجل كنت منتبهاً إلى ذلك؛ فالحجارة

كانت تريد أن تنقلع وكلها نزوع

إلى معانقة غير مرئية.

المادة الصلبة كانت تستشعر

اللجّةَ القريبةَ وترتجف
وكانت أجماتُ القصب النهِمة
تعلن للمياه المستترة
وهي تضطرب عن رضاها.
كنت تفتدي، أيها المدى الرحب
حتى آلامَ الحجارة:
لابتهاجك كان ثباتُ
اللامتناهي منصفاً.
كنت أنحني على الحصى
فتصعد نفحاتُ أُجاجٍ إلى قلبي.
امتداد البحر لم يكن
سوى لعبةِ خواتم.
وفي هذا الفرح ينحدر
من السياج باتجاه البحر
حرّاً كالطائرِ الزقزاق.

توقفت أحياناً...

توقفت أحيانا في المغاور
التي ترافقك، شاسعة
أو ضيّقة، ظليلة أو مريرة.
عند النظر إليها من القاع
تُبرز المداخلُ هندستَها الجبّارة
فوق حقل من السماء.
من حضنك المزمجر كانت
تنبعث المعابد الهوائية
نِبالاً تقذف نورها،
مدينة من الزجاج في السماء الصافية
كانت تنزع براقعها القديمة
الواحدَ تلو الآخر.
ولم تكن زمجرتها سوى همهمة.
من الموج كان يولد وطن الحلم.
من الصخب كان يطفو الوضوح
المنفيُّ كان يعود إلى البلاد، سليماً.

هكذا، أيها الأب، من احتدامك

يتأكّد لمن يراك قانونٌ صارمٌ

باطلٌ هو الهروب: أنا نفسي

لو جرّبتُه لاعترفتُ بذلك

بما في ذلك الحصباء المنهوكة على طريقي

وألمُ الحجارة مجهولُ الاسم

أو الحطام المشوّه

الذي رمى به سيل الحياة الجارف

من مجراه، في ركام من القش والأغصان

لربّما كانت لي استراحتي

في المصير الذي يهيّأ

وما من تهديدٍ آخَرَ البتةَ.

هذا ما يردده الموج في هيجانه الذي لا يهدأ

وما تعيد قوله تعريجة البحر الهادئ.

أحيانا تزف الساعة...

أحيانا تزف بغتة الساعة

التي يفزعنا فيها قلبك اللاإنساني

وينفصل عن قلبنا

موسيقاك تتنافر وموسيقاي

عندها تصبح كلُّ حركة من حركاتك

عدوّاً لي.

وأنطوي أنا منهك القوى

ويبدو لي صوتك مكتوماً

أثبّتُ الحصباءَ باتجاهك

وهي تنحدر درجة درجة

حتى الضفة المنحدرة المطلّة عليك

هشة صفراء حَفَرَتْها

سيولُ الأمطار

حياتي هي هذا السفح القاحل

إنها وسيلة ليست غاية، طريق مفتوحة

على الجداول التي تصبّ فيها

انهياراً بطيئاً

إنها هي مرّة أخرى، النبتة

التي تولد من الدمار

وجه البحر التعب المعلّق

بين الرياح، قوى هائمة

هذه القطعة من الأرض الخالية من أي عشب

تصدّعت لتتمكّن زهرة الربيع من الولادة

أتعثر فيها مترنحاً باتجاه البحر يجلدني

في حياتي، ما زال الصمت ينقصني

أنظر إلى البحر وهو يتلألأ.

الجو الرائق جداً يصبحُ مدْلَهِمّاً

وما ينمو داخلي

قد يكون هو الضغينة أيها الموج البحري

التي يحملها كلّ طفلٍ لأبيه.

نحن لا نعرف أيّ غد

نحن لا نعرف أيّ غد سنسحبه
في القرعة أهو كالحٌ أم مُفرحٌ
قد يقودنا طريقنا إلى مضاءةٍ بكرٍ
حيث يهمس ماءُ الفتوة الأبدي
أو قد تكون انزلاقة إلى الحفرة الأخيرة
في الليل وقد تلاشت كلّ ذكرى من ذكريات الصباح.
أراضٍ غريبةٌ ستستقبلنا أيضا: سنفقد
ذاكرة الشمس، ومن روحنا
سيسّاقط رنين القوافي
أوه...ستتحوّل الخرافة التي تفصح منها حياتنا عن نفسها
فجأة إلى حكاية حزينة دون قصّة
ومع ذلك فإنّك تستند إلينا في شيء
أيها الأب، هو هذا: فقليل من هباتك
قد تُحوَّل في المقاطع التي نحملها،
وإلى الأبد إلى فراشات طنّانة
سنمضي بعيدا جدّا محتفظين بصدى

من صوتك، كما تتذكّر

الشمس العشبة الرمادية

في الساحات المظلمة، بين الجدران

وذات يوم ستبدو هذه الكلمات الخرساء

التي غذّيناها معك بالسأم والصمت

قلباً أخوياً

وكلّها عذوبة بفضل النكهة اليونانية.

وددت لو...

وددت لو أحسستني خشِناً وضرورياً
كالحصباء التي تُدحرجُها
وقد تآكلها الماءُ الأُجاج:
بريقاً خارج الزمن، شاهداً
على رغبة باردة لا تتحقق
كنت شخصاً آخر تماما: إنسانا يقظاً يرى
في ذاته وفي الغير غليانَ
الحياة الهاربة، إنساناً يتأخّر
عند الفعل، وما من شيء بعد ذلك يدمّره
أردت ابتغاء الشر
الذي ينخر العالم، الالتواء الدقيق
لعتلة تعطل
الآلة الكلية، ومعاً جميعا رأيتُ
أحداث اللحظة
وكأنّها على وشك أن تنفصل في أحد الانهيارات.
أحسست في قلبي وأنا أتبع أحد الطرق

بإغراء الطريق المقابل وربّما

كان يلزمني الموسى التي تقطع

والعقلُ الذي يقرّر ويصمّم.

كنت في حاجة

إلى كتب أخرى لا إلى صفحتك المدوّية

لكنّني لا أعرف الندم عن أيّ شيء كان، فكّر أنت

مرّة أخرى، من نشيدك الأعاصير الحميمية.

فالآن أصبح هذيانك يصعد إلى الكواكب.

هل أستطيع على الأقل...

هل لي، على الأقل إرغامك

وسط إيقاعي ضيّق النفس

لفهم القليل من هذيانك،

ليسمح لي بأن أمنح

أصواتك لغتي المتلعثمة

أنا الذي كنت أحلم بسرقة

كلماتك الأُجاج

حيث تمتزج الطبيعة والفن

لِيعْلِنا بشكل أفضل عن سويدائي،

سويداءِ طفلٍ هَرم ما كان عليه أن يفكّر.

على العكس، لم أَنَلْ سوى حروف القواميس المستعملة

والصوت الأصم الذي يمليه الحبّ

وهو يتبرقع ويتحوّل إلى أدب نائح

ليس لي سوى هذه الكلمات

العاهرات اللواتي يعرِضن أنفسهنَّ حسب الطلب

ليس لي سوى هذه الجمل المنهكة

التي سيسرقها غداً أيضاً الطلبةُ الرُّعاع

على شكل أشعارٍ تقليدية.

ويزداد دويّك ويمتدّ لازورديّا

إلى الظل الجديد.

أفكاري تتنافس للتخلّي عنّي

لم يعد هناك أحاسيسٌ ولا معنى

لم يعد لي حدود.

بدّد إذا شئت...

بدّد إذا شئت

هذه الحياة الواهنة المتبرّمة،

كما تفعل الاسفنجة بالخط

الزائل على اللوحة.

آمل أن ألتحق بحلقتك

وأن ينتهي عبوري وقد أضعت طريقي

مجيءٌ كان شهادةً

على نظام نسيتُه أثناء السفر

كلماتي تتعهّد بالوفاء

للحدث المستحيل الذي تجهله

لكنّني كلّما لمحت

على الضفاف ارتداد أمواجِكِ الخفيفَ

يستولي عليّ التأثّر

كما يستولي على صاحب الذاكرة العاجزة

عندما يتذكّر مسقط رأسه.

أفوّض أمري إليك أنت بكلّ تواضع

فقد حفظت درسي

أكثر ممّا حفظته من عظمتك

الظاهرة، واللهاث الأبكم تقريباً

ومن إحدى ظهيراتك المقفرة

لست إلا شرارة من رأس جبل .

أجل أعرف ذلك:

الاحتراق هو هذا

ولا شيء آخر.

هاجرة وظلال

1
نهاية طفولة

بحر مرتعش تحفره الأخاديد
مجعّد كندف الثلج
يغيب مُدوّياً
في قوس الخليج.
كان الموج يصفر
قبالة مَصَبِّ
أحدِ الأودية الطامية،
أكداسٌ من الطحلب
وأعجاز أشجارٍ طائفة
تدور على نفسها في عرض البحر.

في صدفة الشاطئ المضياف
لا ليس إلا بضعة منازل
من الآجر القديم القرمزي
وقليلة هي أغصانُ الطرفاء الطويلة

التي تزداد شحوباً من ساعة إلى أخرى
إنها مخلوقات نحلية ضائعة
في رعب الرؤى.
لم تكن رؤيتها بالأمر الهيّن
لمن كان يقرأ في هذه المظاهر غير الأكيدة
موسيقى الروح القلقة
التي لا تعزم على شيء.

التلال النقية كانت تطوّق في الجوار
البحر والبيوت: وقد غطّتهما أشجار الزيتون
هنا وهناك قطعانا متناثرة
أو رقيقة كدخان
يقلع من إحدى القرى الصغيرة
باتجاه صفحة السماء المبياضة.
بين لطخة الكروم وغابات الصنوبر
يتراءى الحصى
عاريا، أو ظهى التلال المحدّب: عندما يمرّ إنسان مّا
هناك منتصبا تماما فوق بغله

في الزرقة المنقّاة كان ينطبع
إلى الأبد، وفي الذكرى.

لم نكن نتجاوز القمة القريبة
لهذه الجبال، حتى الذاكرة المتعبة
لا تجرؤ على تجاوزها:
أعرف، هناك طرق تركض فوق القنوات
المحصورة، في أكداس من العوسج:
كانت، وهي تفضي إلى مضاءات
ثم إلى وهاد تنأى وتنأى
باتجاه زوايا رطبة من العفونة مغطّاة
بالظلال الغائمة والصمت
هناك شخص ما زلت
أراه مندهشا.
حيث تبدو كل نزوة
إنسانية مدفونة
في نسيم ألفي.
نادرا ما تهادت لطخة من الهواء

حتى هذا المكان من العالم الذي ظلّ محظورا عنها.

لكنّ الناس كانوا يعودون من الطرق الجبليّة
كانت هي، تفضي إلى متتالية
غير مستقرّة من المناظر المجهولة
لكنّ الإيقاع الذي يحكمها كان يخفى علينا
كلّ دقيقة كانت تحترق
في اللحظات المستقبلية دون أن تترك أثرا.
العيش، كان مغامرة جديدة أكثر من اللازم
ساعة فساعة ويخفق قلبك
لم تكن هناك قاعدة البتة
لم يكن هناك أثر ثابت، ولا مقارنة
لنميّز الفرح من الحزن.

ولكن عند العودة عبر الدروب
باتجاه البيت على ضفّة البحر المأوى الموصد
لطفولتنا المندهشة
يتجاوب سريعا

مع كلّ حركة من الروح
انسجام خارجي فتكتسي الأشياء
بالأسماء. لقد كان لعالمنا مركز.

كنا في العصر البتولي
حيث الغيوم الكثيفة ليست أرقاما ولا رموزا
وإنما راهبات جميلات نراهنّ وهن يعبرن.
كانت الطبيعة تبدو لنا بذورا أخرى
سليلة نسغ آخر
غير نسغنا، الأكثر وهنا،
فيها المأوى وفيها
فتنة النظر، هي المعجزة
التي لم تكن روحنا المبللة بالماء
تحلم بها وببلوغها.
كنا في عصر من الأوهام.

تبدّدت سنوات كالأيام في قصرها
غرق كلّ يقين في بحر نضير

ونهم، بات يفضي على
أشجار الطرفاء المرتجفة
مظهرها المتغير
فجر ما كان لا بدّ من أن ينبلج
بشّرت به أشعّة من النور
على العتبة الصقيلة
شبيها بمزنة.
وبالطبع سارعنا
لفتح الباب ذي الصرير
على حصباء الحديقة.
كان الوهم جليّا بالنسبة إلينا.
فجأة ظهرت غيوم كثيفة
فوق البحر المضطرب
الذي كان يحتدم قبالتنا
كان هناك، في الجو،
انتظار لحدث عاصف.
أجل يبتعد أيضا وطن
الطفولة التي تستكشف

الفناء الذي أختير كعالم
بالنسبة إلينا نحن أيضا
كانت تزف ساعة التّحديات.
فالطفولة كانت قد قضت في رقصة دائريّة.

آه على القيام بدور آكلي لحوم البشر في غابة القصب
بشوارب من خوص النخيل المضفور
والتقاط الفشك بعد إطلاقه
وكان شيئا رائعا.
كان العمر الجميل يتلاشى كالمراكب
على طول البحر، وقد أسرعت.
أجل كنّا ننظر صامتين
في انتظار لحظة الشدّة
ثمّ كان على الريح
أن تعصف في الهدوء الزائف
فوق الماء الذي كان يتجوّف.

الباهرة فوق الصخر

ريح السموم

يا عصف ريح السموم الهائج

يا من يحرق

الأرض المتكلّسة ذات الخضرة المائلة إلى الاصفرار

وهناك، في السماء المكتظة

بوميض شاحب

تعبر، بعض من ندف

السحاب وتضيع

ساعات حائرة

ارتعاشات حياة تفرّ

كما يفرّ الماء بين الأصابع،

أحداث لا تدرك

وميض، ظلال، ارتجاج

الأشياء الأرضية غير المستقرّة

أجنحة الهواء القاحلة

الآن أنا هو الباهرة التي تتشبّث

بصدع الصخر

وتفرّ من ارتداد الأمواج ذي الأذرع الطحلبية
الذي يفتح أشداقا واسعة ويعذّب الصّخور
وفي الهيجان العظيم لكل جوهر
ببراعمي المغلقة التي لم تعد
تعرف كيف تتفتّح، أحس اليوم
سكوني كأنه عذاب.

ريح الشمال

هي ذي دوائر القلق
التي تذرع البحيرة قد اختفت
واختفى القلب وهذا الغليان الذي لا ينتهي
والمادة التي تشحب وتموت
اليوم إرادة حديدية تكنس الفضاء
تقتلع الشجيرات، وتنهك أشجار النخيل
وفي البحر المرهف تحفر
أخاديد ضخمة ذات غارب مزبد
كل الأشكال ترتج في ثورة
العناصر، الكلّ يعوي معا، الكل يجأر
كينونات ممزّقة، كل شيء حطّمته
الساعة وهي تمر، تعبر قبّة السماء
أوراق وطيور وأشياء أخرى لا نعرفها، وتمّحي.
وأنت
يا من تهتزّين بقضك وقضيضك في القصف
الأصم للرياح الثائرة

وتشدين إليك ذراعيك المنتفختين

بورود ما زالت تنتظر الولادة

لكم تشعرين بعدائية

الأرواح وهي تطير أسرابا

فوق الأرض المتشنّجة

يا حياتي العابرة

ولكم تحبين اليوم جذورك.

شمأل

عودة إلى الهدوء المرتقب
بين الصخور البحرية يثرثر الموج
على الساحل الذي سكن، في البساتين،
بعض النخيل يرفع هامته.

دغدغة تلامس البحر المنثني
وتغيّر وجهته
للحظة، نفحة واهية تتكسّر فيه
لتستأنف طريقها.

المدى الشاسع يتجعّد
موجة متلألئة وسط الضياء ثم تستوي، راضية
مستجلية في حضنها الواسع حياتي الهزيلة
المليئة بالقلق.

يا أرومتي التي تعرض
في النشوة المتأخّرة
وكلها انبعاث، براعم مزهرة
فوق يديك، انظري:

تحت السماء الصافية المكتظّة
ينطلق طائر بحري
لن يحط أبدا: ذلك أن كل صورة
كتب عليها: «أبعد فأبعد»!

فسقية

سرت في الكأس وهو يرتعش

ضحكة ست حسن مزهرة

بين الأغصان الشحيحة تتزاحم الغيوم،

من القاع ترتفع أطيافها الشاحبة

رمى أحدنا بحجارة

هشّمت المرآة المتلألئة

فتكسّرت الهيئات الرخوة.

لكن ها هو شيء آخر ينزلق

على المرآة الملساء من جديد:

لم تعد تستطيع التدفق

تريد أن تعيش ولا تدري كيف.

وعلى مرأى منك انفصلت وغرقت:

مولودة ميتة دون أن تسمى حتى.

رعوية

كان يحلو لي في ما مضى من الزمن

أن أضيع في الرّماديّ المتموّج

لأشجار الزيتون وقد ملأتها

الطيور المتشاجرة بصخبها

وبين الجداول المغنية.

ولكم كان كعب حذائي يغوص

في الأرض المتصدّعة

بين الصفائح الفضية

والأوراق الدقيقة ودون نسق

كانت تولد بداخلي الأفكار

في الهواء المثقل بالسكينة.

الآن انتهى الالتماع اللازوردي

الصنوبرة العائلية تتسامق واضعة حدّا للرتابة

قطعة من السماء تحترق

هناك بيت عنكبوت

يتمزّق عند المرور، في الجوار

ساعة ضائعة تسقط سلاسلها

دوي قطار يُسمع

غير بعيد، وهو يتضخّم، انفجار

يتحطّم في الهواء الزجاجي

طيران يمرّ صاخبا كمطر الإعصار،

يهبّ ثم يضمحلّ

غمر محترق من

قشرتك المرّة أيتها اللحظة: جانبا

تنفجر عصابة غاضبة.

قريبا ستتمكّن الغزلية الرعوية من الولادة مجدّدا

المرحلة المعلّقة في السماء

أعيد تركيبها، أشرطة صغيرة تتحرّر

مربّع الفاصوليا السميك

امّحى منها، يلفّه الظل

لم تعد هناك حاجة إلى أجنحة سريعة

ولا إلى نجدة خاصة جريئة

وحدها الزيزان الوقورة تستمرّ
في أعياد الإله ساتورن عند الظهيرة
طيف امرأة يمضي ويجيء للحظة في أحد الأدغال.
لقد مضى. لم يكن طيف إحدى كاهنات باخوس.

في ساعة متأخرة ينصب القمر طرفيه
كنا عائدين من
تشرّدنا غير المثمر
لم نعد نقرأ على صفحة العالم
أثر الجنون الذي كابدناه طيلة ما بعد الظهيرة
مضطربين، نزلنا وسط العلّيق
في أقاليمي كانت الأرانب البرية
في هذه الساعة تعلن عن نفسها وهي تصفر.

دفْق

بأقواسهم الصغيرة يُخيف

الأطفال طيور الصعوة في كنفاتها.

زرقة السماء الفاترة

ترشح في الجدول الغارق في الكسل

استراحة تمنحها الكواكب لمسافري

الطرق البيضاء

عاليا ترتعش ذوائب البيلسان

المطلّة على المنحدر

الذي يشرف عليه «إيتي»

التمثال الذي أصبح أفطس

بفعل الرجم

وفوقه تنمو صهبة

النباتات المتسلّقة وطنين الفراشات.

لكن الإلهة المشوهة لا تطهر

كلّ شيء يميل باتجاه المراكب

الورقية التي تنزل بطيئا الخندق

سهم تلمع في الجو

تنغرز في أحد الأوتاد، تهتز، مرتعشة.

الحياة هي هذا التبذير

لأحداث بالية

تبذير باطل

أكثر منه وحشيا.

تعود

قبائل الأطفال بمقاليعهم

سواء مرّ موسم أو لحظة

يكتشفون، دون أن يتغيّروا

المظاهر المفقودة

مع أنّ كل شيء قد تحوّل إلى أنقاض

وأنّ الثمرة المعروفة

لم تعد تتدلّى من غصنها

إنها عودة الأطفال، وهكذا، ذات يوم

ستعيد لنا الرقصة الدائرية

التي تقود حياتنا، الماضي

البعيد، المحطّم، ولكن القابل للحياة

وقد طبعه فانوس مجهول

فوق ستائر ثابتة

ومن جديد تمتدّ

قبة سماوية كامدة

فوق القناة وقد اشتدّ الزحام فيها

لكن التمثال وحده

يعرف بأن الزمن يسرع ويختبئ

في شجرة اللبلاب التي تزداد اضطراما.

ويتدحرج الكل على المنحدر الكبير

وما دامت القناة الجامحة

تهدر حتى لتتكسر تموّجاتها:

فإن شبكات الصيد الصغيرة

تغرق في دوامة الماء المزبد.

وداعا، تصفر الحجارة بين الأوراق

فالحظ الجشع قد ابتعد بعدُ

ساعة تزول، تشوش من جديد على ملامحها

والحياة قاسية أكثر منها باطلة.

جرف

صوت بوق يصعد

من السفح وهو يتقوّض،

ينزل باتجاه البحر

المرتعد. ولكي يستقبله، ينفتح.

في الشعب الضيّق المعرّض للهواء

تغوض، مع الظلال، الكلمة

التي تذيبها الأرض على الأرصفة الصخرية.

العالم يفقد ذاكرته ويمكنه الولادة من جديد.

مع مراكب الفجر

ينشر النور أشرعته الكبيرة

ويجد الأمل مكانا في القلب

لكن الصبح قد ولّى،

يفرّ الضياء ويتجمّع

فوق المرتفعات والأوراق

كل شيء أكثر قصرا وأكثر قربا

كما لو كان منظورا إليه من خلال ثقب إبرة.

الآن، النهاية أصبحت يقينا

وحتى لو سكنت الريح

فإننا نسمع صوت المبرد وهو يقطع

بدون هوادة السنديانة التي تربطنا.

وكركام من موسيقى

ابتعد الصوت، إنه ينحدر بسرعة

ومعه تتشتّت الأصوات

المتجمّعة في تلافيف

الشقوق القاحلة

نجيب المنحدرات

بين حقول الكروم

التي تحاصرها الجذور المجدولة.

لم يعد للجرف ممرات

الأيدي تتشبّث بأغصان

أشجار الصنوبر القميئة. ثم يرتجف

ضوء النهار ويتضاءل

ينزل أمر يحرّر من حدودها

الأشياء التي لم تعد ترغب

إلا في الاستمرار والثبات

راضية بكدّها الذي لا نهاية له.

انهيار حصباء من السماء

يغرق في الضفاف....

في المساء الذي يمتدّ بالكاد

يتناهى هدير أيائل، ثم يتشتت.

2
أرسينيو

العواصف تثير الغبار
فوق السطوح مزنة في إثر مزنة،
على الساحات المقفرة حيث تتنشق الخيول
في قلنسواتها الأرض وهي واقفة
أمام نوافذ الفنادق الزجاجية المتلألئة.
في المتنزّه، قبالة البحر تنزل
في اليوم الممطر تارة، والمنوّر أخرى
حيث يصدع ما يشبه لازمة الصناجات
وهي تقطع نسيج الساعات المتساوية.

إنها علامة مدار آخر: اتبعها
انزل إلى الأفق الذي يعلوه
إعصار من الرّصاص يشمخ فوق الدوامات
وأكثر تشرّدا منها: إنها سحابة مدوّمة
مالحة نفثها العنصر المتمرّد

إلى الغيوم: ليصرّ
خطوك على الساحل الرّملي وتعلق
في مشبكات الطحالب:
أهي ربّما الساعة المنتظرة
التي تعفيك من إنهاء سفرك، حلقة في
سلسلة، حركة ثابتة، هذيانا
معروفا أكثر من اللازم، أرسينيو
ومن الجمود...

اصغ إلى عزف الكمنجات المرتجف
وهو ينطفئ بين النخيل
عندما يجري الرعد
مع ارتعاشات صفيحة معدنية
تُقرع: العاصفة وديعة عندما
تظهر الهاجرة البيضاء
في السماء الصافية ويبدو نائيا
المساء القريب جدا: إذا ما الصاعقة
قطعته انتشر كشجرة ثمينة

في النور المتورّد: ويدوي
طبل الغجر، صامتا.

انزل في هذه الظلمة التي تتكشف
وتجعل من الظهيرة ليلا
من الكرات المضاءة تنوس على الشاطئ
بعيدا من هناك حيث تقع السماء والبحر
في الظل نفسه يختلج غاز الأسيتيلين
فوق المراكب الشراعية الصغيرة المبعثرة
إلى أن تتقطر السماء المرتجّة
ويتصاعد البخار من الأرض وهي تروى
كل شيء يرتج حولك، قماشة
الخيام الرخوة تصطك في الريح، ضوضاء عارمة
تلامس الأرض وفي الشوارع
تخر الفوانيس الورقية وهي تصفر.

هكذا، ضائعا بين الحواجز والصفصاف
قصبة تجرّ جذورها

اللزجة التي لم تنتزع أبدا

تنتفض حياة وتنحني

فوق فراغ تتردّد فيه شكوى مكظومة

حركة الموجة القديمة التي تطويك تغرقك من جديد:

تستعيد نفسك،

الشوارع والقناطر

الجدران والمرايا، الكل يتجمد في حشد جليدي

واحد من الموتى

وإذا ما لامستك حركة

وإذا ما وقعت كلمة بالقرب منك فقد تكون

يا أرسينيو في الساعة التي تنحل

نداء حياة مختنقة تلوح لك

ثم تحملها الريح مع رماد الكواكب.

3
خادرة

الشجرة الخضراء الغامقة
تتخطط وتترصع بأصفر غضّ
في الهواء ترتجف شفقة على الجذور
النهمة والقشور المورمة.
إنها نباتاتك هذه
المبعثرة التي تتجدد
مع نفحة نيسان، رطبة وسعيدة.
بالنسبة إليّ، أنا الذي يتأملكن من هذا الظل
يخضر من جديد دغل آخر: إنكن موجودات.

كل لحظة تحمل إليكن أوراقا جديدة
تفوق فرحتها كل فرحة أخرى عابرة
على شكل أمواج جارفة تقبل الحياة
حتى هذا الركن من الحديقة
النظر الآن يقع فيها على المدر،

ذكريات ترتد، تصعد

قلبك تكاد تغمره

بعيدا تدوّي صيحة: الزمن

يتسارع، يختفي دوامات قصيرة

بين الحجارة تنطفئ كلّ ذكرى، وأنا

ومن ركني الظليل أتمدّد

باتجاه هذه الشمس الحدث.

كلاّ أنتنّ لا تفكّرن البتة في من سرق منكن

مثل هذا اليوم، الصديق الصامت

الذي كانت تحمله إليكن ظهيرة نائية

إنكن غنيمتي، أنتن من تمنحنني

ساعة قصيرة من القشعريرة الإنسانية

لا أريد أن أضيّع ولو لحظة

هذا هو نصيبي، وكل نصيب آخر باطل

ثروتي هي هذه الرعشة

التي تسري فيكن وتجبركن على

رفع وجوهكن، هذه النظرة

البطيئة التي تستدير وتعرف الآن كيف ترى.

هكذا يمضي يقين لحظة مّا
عندما تصطفف في الريح الستائر والأشجار
بين الجدران، ولكن دون أن يمحو الظلّ
الذي يطالب بكنّ، كثيفا، عندها
تبدون لي، مثلي أنا، في الحافة الكامدة
للكينونات المشوهة، وحتى ميلادكن
من جديد هو سرّ عقيم،
أعجوبة لم تتحقق
ككلّ تلك الأعاجيب
التي تزهر من حولنا.

والموج الذي نكتشفه وراء الحاجز
لكم يكلمنا عن الخلاص
وأن الوهم يمكن أن يظهر رشيقا
ثم يتلاشى دخانا.
تمضي تلافيفه في البحر وتذوب

في الأفق متخذة هيئة سنونوات البحر
إحداهن تطير بدون أزيز
أليسونا هاربا فوق المياه الرصاصية
التي يلامسها، الشمس تغوص في الغيوم
وتنغلق ساعة من الحمّى، قلقة
لهاث أبيّ يخنقنا، صامتا: ظهيرة مرهقة
هو ذا مركب الخلاص يطل، إنه يقبل
يترك طوافة تعود
باتجاه الصخور الطيّعة وتنتظرنا هناك.

آه، أيتها الخادرة كم هو مرير
هذا العذاب الذي لا إسم له والذي يحملنا
ويقودنا إلى البعيد ثم لا تبقى
بعد ذلك حتى آثارنا على الغبار،
وسنتقدّم دون أن نزعزع
كتلة واحدة من الجدار العظيم
ولربما كان كل شيء قد دوّن وكتب
ولن نرى، وقد بزغت أثناء الطريق

الحرية، المعجزة،

الفعل الذي لم يكن يفتقر إلى حاجة!

لا وجود لأي أثر في اليم، والسماء الصافية

هي ذي علامات الشاطئ قد تغيرت

وتغير هذا الحضن الملتقط قبل قليل بكل لطف

الصمت يسيجنا داخل ردائه

الشفاه لم تعد تفتح لتقول

الميثاق الذي أريد

إبرامه مع المصير: أن أكفر

عن فرحكم بإدانتي

هذه الأمنية ما زالت تلوح في داخلي

ثم تتوقف كل حركة، عندها أفكر

في القرابين البكماء التي تدعم

بيوت البشر،

في القلب الذي يتنحّى

ليتمكن طفل غير واع من الضحك،

في القطع الذي يبتر،

في البيت المحتضر وهو يستعيد حياة

ذات وتد قاحل

ويحترق وهو يرتجف.

تموّج

أنت تغرف الماء وها هو مركبنا يطفو
وها هو ذا بلور المياه يتغبش
إننا ندفع، وقد خرجنا من إحدى المغارات إلى هذا الشاطئ
الأسمر الذهبي الذي يبلبله النسيم الناعم.

وكما في السابق، لم يعد يقلقنا
اصطدامنا بالسرب يزيحه الغروب في الظلمة،
سرب الخفافيش، والمجداف الذي اختبر
الظل يكف عن الاصطدام بجدار الصخر.

في الخارج، الشمس تلتهب
وقد توقفت عن سيرها
السماء المجوفة تضيء، متوهجة
زجاجا لا يتطاير شظايا.

من زورق، يرخي أحد الصيادين
صنّارته، فتضيع في التيار
يرى عالم القاع يرتسم
كما لو كان مشوّها تحت زجاج.

في الصدفة الضيقة الهادرة
ترك المجداف مشدودا إلى الوتد
تصرّف بحيث لا ترتد الصورة إليك، موجعة
لتشوش هذه الظهيرة.

في الجوار تحاصرنا الأسراب والطيران
الهواء جناح من مخمل.
تمّحي: النور المفرط يخدّرها
تتآكل الأفكار المغرقة في الوحدة.

عما قريب سيصبح كل شيء خشنا
وسيزهر الموج تجاعيد أكثر عتمة
لكنه، في الوقت الحاضر، سيظل هكذا تحت طوفان

الشمس التي تزداد حلكة.

تموج يقلب
الأشكال والحدود ويجعلها مبهمة:
كل قوة عزوم تشيح الآن
عن الطريق. الحياة تنمو بحمية.

إنه لأمر أشبه بنار الفرح من دون نار
كنا ربما أعددناها لإشارات أكيدة:
في هذا الوهج يتحرك وهجنا الأكثر ضعفا
في هذا اللهب تحترق الوجوه والقيود.

أرق إذن قلبك
المفعم في الماء الذي ينفتح ظله،
وليغرق إسمك، صابورة في
الغوص الذي يحتضر.

هذيان كوكبي يندلع

سيّء الهدوء وبراق
لربما رأينا الساعة التي تمنح السكينة
وهي تأتي منزلقة صوبنا على المرآة المضطرمة.

فوقنا تتدرج منحدرات
الكروم المنخفضة، سهولا ضيّقة.
في الأعلى، أغان رتيبة، ولاقطات
يغنين بأصواتهن الغليظة.

آه، مواسم القطاف الصيفي
الانتقال في انطلاقة النجوم
ومنها ينحدر علينا
خدر يصبغه الندم.

تتحدثين ولا أتعرف على نبراتك
تبدو لك الذاكرة وقد نصلت،
لقد مضيت ومع ذلك أحس
إلى أي مدى حياتك مضناة.

الآن ما الذي يحصل؟ من جديد
تشعرين بثقل كيانك، وعلى حين غرّة
تبدو الأشياء التي كانت إلى ذلك الحين، متذبذبة،
ثقيلة فوق محورها. الفتنة ستولد ثانية.

آه لنمكث هنا لا يبعد أحدنا عن الآخر
هكذا بدون حراك ما من أحد وهذا أكيد
يسمع صوتنا، ولتغمرنا هكذا لجة السماء
الأكثر ثقلا على الدوام.

في الفراغ

بالشمس يندلق الشعر الغزير
بين أسيجة القصب، على الضفة.
يتكاسل الزورق، وقد نعس ولا شك.

ما من صوت ينبعث خلال النهار
تحت القوس المتلألئ
ولا غطيسة صماء
لتفاحة صنوبرة، ولا برعم ينفجر
خلف جدار.

كل شيء يغرق في الصمت
دون توقف كان مركبنا
يقطع الرمال في مجراه، علامة في السماء
معلقة منذ زمن طويل تغرق.

الأرض ما عادت سوى طفاحة وعاء

وزنه البريق الذي يسيح

واللهب، زبد الظلمات،

كانت الهوة تتسع عميقا جدا

بالنسبة إلى المرساة وبالنسبة إلينا

عندما انبجس شيء مّا في الجوار

أغلقت القناة من جديد مصراعيها

ما من شيء كان قد ضاع –وربما كل شيء–

وأفقت على صوت شفتك

الخرساء سابقا، ومنذ ذلك الحين

سجنّا أنت وأنا في عرق البلور هذا

الذي ينتظر، محتجبا، مجيء يومه.

البيت على البحر

هنا تنتهي الرحلة:
في الهموم الدنيئة التي تتوزع
الروح العاجزة عن إطلاق صرخة.
الآن الدقائق متساوية وثابتة
كدوران ساقية
دورة: تدفق مدوّ للماء
وأخرى، ماء جديد وصرير أحيانا.

الرحلة تنتهي عند هذا الشاطئ
الذي تهاجمه الأمواج بلا هوادة وبصبر
ما من شيء يسفر اللهم الدخان الكسول،
اللوحة البحرية التي تنسجها الرياح
اللطيفة من المحار: ونادرا ما تظهر
في الهدوء الصامت
بين الجزر التي تبدو وكأنها مهاجرة

الكبرايا أو كورسيكا[1] بسلاسل جبالها.

تسألين ما إذا كان كل شيء

يمّحي هكذا في ضباب الذكريات الرقيق هذا

وما إذا كان كل مصير يتحقق

في الساعة الناعسة أو في تنهيدة الرصيف

وددت أن أقول كلاّ ولتقترب الساعة حيث تجتازين إلى الضفة الأخرى من الزمن

وحده من يريد ذلك قد يخلد

وهذا أنت قادرة عليه –من يدري– لا أنا

بالنسبة إلى الأكثرية، أعتقد بأن لا خلاص

لكن أمرا كهذا يربك كل الخطط

يجتاز الممر، ومثلما كان يرغب تستعيد نفسه ثانية

قبل امحائي أود أن أدلك

على طريق الفرار هذه،

غير المستقرة كالتجاعيد أو الزبد

في حقول البحر الهائجة.

---

(1) جزيرة صغيرة تقع في خليج جنوة على بعد 40 كم من كورسيكا.

أمنحك أيضا أملي النهم.

فأنا لا أستطيع، وقد سئمت، أن أعلل نفسي به

لأيام جديدة:

أقدمه عربونا لمصيرك لكي يصونك.

الطريق تنتهي عند هذه الضفاف

التي يتآكلها الموج بحركته المتعاقبة

قلبك القريب جدا يقلع الآن

دون أن يسمعني ربما إلى الأبدية.

الموتى

منكسرا على الشاطئ المقابل
يثير البحر الزبد على شكل زوابع ذات لمعان أبيض
ثم يتلاشى في المدى هنا
ألقينا ذات يوم على الساحل الصخري
اللاهث أكثر من الموج، أملنا
وإذا بالدوامة العقيم تخضرّ
كما في الأيام التي شهدتنا أحياء
الآن تسوي ريح الشمال العقدة المضطربة
للتيارات المالحة وتحملها
إلى حيث انبثقت: غير بعيد شخص ما
يعلّق في أغصان الأخياس شباكا تمتد
على ممرّ المنحدر أسفل النظر
شباكا زال لونها يجفّفها احتكاكها الفاتر
والبارد بالضوء، وفوقها يرفّ
كثيفا، بلّور السماء
الذي يندفع قوسا مجلودة
في الأفق.

أكثر من طحلبة طرحها

هيجان البحر وقد تكشفت لنا

يحرك حياتنا خمول مشابه: يعصف

كل ما فينا: وذات يوم توقف

وقد أعيد إلى حدّه بين الخيوط

التي تجمع غصنا بآخر يتخبّط قلبنا

كحشرجة البحر

وهو يعلق في الشباك

ثم يستوقفنا مشردين لا يتحركون

ثبات جليدي

هكذا

قد لا يسمح للموتى أيضا بأي راحة

في التلعة: قوة مّا تنتزعهم منها

أكثر قسوة من الحياة: وفي الجوار

تجرّهم ، تمسك بهم الذكريات البشرية

في هذه الشواطئ، أنفاسنا

بدون مادة أو صوت

تفضحهم الظلمات، طيرانهم

المشوّه يلامسنا لمسا خفيفا، الآن

انفصلوا عنا بالكاد

وفي غريال البحر يغرقون...

دلتا

الحياة التي تنقصف سراً
أوصلتنا بك أنت
تلك التي تتخبط في ذاتها
حضورا مختنقا وتكاد تحملك تقريبا.

عندما ينحبس الزمن بين سدوده
تمنحين مصيرك لمصيره، شاسعا
وتبرزين ذاكرة أكثر جلاء
من المنطقة المظلمة حيث كنت تنزلين
مثل الآن، بعد وابل المطر، يتجمع من جديد
فوق الأغصان الأخضر
وعلى الجدران الأحمر القرمزي

لا أعرف عنك شيئا باستثناء الرسالة
الصامتة التي تشد أزري في الطريق:
إذا كنت توجدين شكلا أو شبحا

يغذيك في دخان الحلم

الساحل الذي يثور، يضطرب ويفور

قبالة المد البحري.

لا شيء منك، عندما تترنح الساعات

الرمادية أو الممزقة لكبريت يشتعل

ما عدا شخير القاطرة

التي ترسو في خليج الضباب.

لقاء

لا تتركني يا حزني
على الطريق
الذي تجلده ريح السموم
بزوابعها الحارة، ثم تمّحي
أيها الحزن الأثير ذو النفس المحتضر
والذي يحملك إلى الميناء الآمن
حيث تصعد آخر أصوات النهار
تعبر غيمة، في السماء يطوى
جناح غاق.

المصب، كل شيء ضد السيل: عقم
من حيث المياه، يضج بالحجارة والأنقاض
لكنه ممتلئ أكثر بأفعال إنسانية محروقة
بحيوات تميل وهي تشحب
إلى ما وراء التخوم
التي تحاصرنا: وجوه نحيلة،

أيد معروقة، خيول مصطفة، عجلات
تصرّ، لا أثر للحياة، نباتات
البحر الآخر الذي يعلو الموج.

نسير على قارعة الطريق، وحل
متيبّس، ملتصق ببعضه بعض،
مرتدين معطف الطواف
تحت القبة المهشمة المنحدرة
وهي تكاد تعكس الواجهات الزجاجية
في نسيم يلف الخطى
كثيفا ويساوي بين الطحالب
البشرية المتقلبة
ذوات الستائر القصبية المتمتمة.

إذا تركتني أيضا أيها الحزن،
العلامة الوحيدة التي تعيش
في هذا العجيج، أشعر
بأن حولي ينتشر

طنين العقارب هذا قبل

الساعة التي ستدق،

وأسقط ثانية دون حراك في انتظار كئيب

لمن لا يعرف الخشية

على هذا الشاطئ الذي باغته الموج

المتمهل لكن دون أن يظهر.

لربما اتخذت هيئة مرة أخرى: وسط النور

المسف أمر بالقرب من

نبتة مسكينة تنمو

في أصيص على باب أحد المنازل،

مددت يدي نحوها

أحسست وقد أصبحت ملكا لي

بحياة أخرى، وقد أعاقتني الهيئة

الوحيدة التي نزعوها مني

وبأصابعي التفت حلقات

لا الأوراق

وإنما الشّعر.

ثم لا شيء. بعد ذلك اختفيت!

مثلما أتيت، عنك لا أعرف شيئا

ما زالت حياتك ملكا لك: من بين تباشير

النهار النادرة وقد تبعثرت بعد

صلي من أجلي إذن لأهبطنّ طريقا آخر

غير شارع المدينة،

في الهواء الضارب إلى البنفسجي

قبالة ضوضاء الأحياء ولأحسك إلى جانبي

ولأنزلن دون أن أنحطّ.

سواحل

نهر

سواحل،

تكفي بضعة نصال من الصبار

المتدلي من منحدر

على هذيان البحر

أو زهرتا كاميليا شاحبتان

في الحدائق المقفرة

والأوكاليبتوس الأشقر

الذي يغوص

بين صفق الأجنحة والطيران المضطرب

في النور

وفي رفة عين ها هي ذي

خيوط غير مرئية، هي الثعابين، تطوقني

فراشة وقعت في شراك

أشجار الزيتون المرتعشة في نظرات عباد الشمس.

أسر لذيذ اليوم، سواحل

من يستسلم قليلا

كمن يعيش من جديد لعبة قديمة

لم ينسها أبدا

أتذكر شراب الحب اللاذع الذي كنت

تناولينه للفتى الضال أيتها السواحل:

في الصباحات الصافية كانت تمتزج

مناظر التلال والسماء، على رمل

الشواطئ كانت هناك دوامة شاسعة

ارتعاشة حيوات متعادلة

عالم محموم وكل شيء

كان يبدو فانيا في ذاته

أوه... عندها نرتج

كما ترج عظام الحبّار الأمواج

نمحي شيئا فشيئا

نتحول

شجرة خشنة أو حجارة

صقلها البحر، في الألوان تمتزج

الأصايل نختفي جسدا

لننبثق ثانية منهلا أسكرته الشمس

نهشته الشمس...

كانت هذه

أيتها السواحل أمنيات طفل الماضي

الذي كان يموت وهو يبتسم بالقرب من حاجز

يتآكل ببطء.

لكم تتكلم أيتها الأمواج هذه الأنوار الباردة

لمن يفرّ منكن ممزّقا

أمواج المياه التي تتعرى عند مرور

أكوام الأغصان المتحركة، صخور سمراء

في الرذاذ، طيران خطاف جوال...

آه، كان بإمكاني

أن أصدقك في يوم من الأيام أيتها الأراضي

يا جمالا جنائزيا،

يا طرقا ذهبية

لاحتضار كل كائن.

اليوم أعود

إليكم أكثر قوة أم أنه كذب

مع أن القلب يذوب على ما يبدو

ذكريات مرحة ومبرّحة.

يا روح الماضي الحزينة

وأنت، أيتها الرغبة الجديدة التي تدعوني

أوان الأوان لأجمعكما

في ميناء رائق من الحكمة...

وستكون هناك في يوم من الأيام أيضا

دعوة صوت من ذهب، من أوهام جريئة،

يا روحي التي أضحت غير قابلة للقسمة فكّري إذن:

في تحويل المرثاة إلى نشيد، واستعادة قواك

وألاّ توهني أبدا

أن تكوني

شبيهة بهذه الأغصان

الناحلة والعارية بالأمس والمليئة اليوم

بالنبض والنسغ

وأن نسمع غدا، نحن أيضا، وسط العطور

والرياح دفقا من الأحلام جديدا

الدفق الحار والمجنون لأصوات باتجاه الخلاص

وأن نزهر ثانية تحت الشمس

التي تنقض عليك.

أيتها السواحل،

فيضي!

نبذة عن المترجمين:

د. عزالدين عناية: أستاذ تونسي يدرّس بجامعة لاسابيينسا بروما. ترجم عديد الأعمال الشعرية الإيطالية إلى العربية منها: «أنطولوجيا الشعر الإيطالي المعاصر» ميلانو 2002. كما نقل بعض الأعمال العربية إلى الإيطالية، منها ديوان «المرائي والمراقي» للشاعر محمّد الخالدي، ترنتو 2005.

محمد الخالدي: شاعر وروائي ومترجم من تونس، نشر عديد الأعمال منها: «قراءة الأسفار المحترقة» بغداد 1974، «كل الذين يجيئون يحملون اسمي» بغداد 1978، «سيدة الباب العالي» تونس 2000، «وطن الشاعر» تونس 2003.

عظام الحبّار

هدهد، أيها الطائر السعيد

هدهد، يا طائر الشعراء

السعيد المفترى عليه،

أيها الهدهد يا رسول الربيع

فإنّ شهر شباط لن يموت بعد الآن

فيما أنت تجهل ذلك.

